

الفصل السادس

العصية

مشكلة العصبية هي مشكلة تواجه العديد من الآباء والأمهات وحالات عصبية الطفل لا تعود إلي أسباب نفسية فقط، بل إن هناك عوامل جسمية تؤثر في عدم استقرار الطفل، ومهمة الوالدين هي محاولة فهم الأسباب الكامنة خلف هذه الأعراض العصبية، ومساعدة الطفل علي التخلص منها بطريقة غير قهرية.

من الأطفال مَنْ يتصف بالعصبية في المزاج Nervous حيث تُستعمل اللفظة الأجنبية لعدة معانٍ، فهي تعني «عصبي»، أو ذا علاقة بالخلايا العصبية، أو مؤلف منها، وذا علاقة بالأعصاب أو متأثراً بها. وتُشير إلي مَنْ كان مُتقد الفكر أو الشعور أو الأسلوب، مثلما تدل علي حدة المزاج وعدم استقراره، فيقال للشخص «عصبي المزاج». وتظهر علي هؤلاء بعض الأعراض العصبية في صورة حركات لا شعورية تلقائية لا إرادية، مثل: قرض الأظافر (قضم الأظافر)، أو رمش العين، أو هز الكتف، أو عض الأقدام، أو مداومة اللعب في الشعر، أو حك فروة الرأس. أو قد يكون بالاستغراق في أحلام اليقظة «Daydream»، أو قد يكون أحياناً بالبكاء. وفي أحيانٍ أخرى تظهر أعراض التشنجات الهستيرية «غير الصرعية»، أو غير ذلك من الحركات التي لا تقرأها البيئة الاجتماعية، وبالتالي يحاول الوالدان منع الأطفال عن الإتيان بمثل هذه الحركات ولكن دون جدوى، لأنها حركات لا إرادية مرجعها التوتر النفسي الشديد، الذي يعاني منه الطفل، والذي يؤدي بدوره إلي توتر في الجهاز العصبي، فيتخلص منه الطفل بتلك الحركات بطريقة قهرية لا شعورية.

وكُلّ هذه الحالات العصبية ليست أسبابها نفسية فقط، بل إن هناك عوامل جسمية تؤثر في عدم استقرار الطفل وعصبيته، وهو ما سنوضحه في الفقرات التالية.

❖ عصبية الأطفال ومفهوم الذات:

الأسرة تؤثر في شخصية الطفل تأثيراً كبيراً لأنّ الطفل يتفاعل مع مجتمع الأسرة أكثر من تفاعله مع أي مجتمع آخر، وخصوصاً في سنواته الأولى. والطفل يكوّن فكرته عن نفسه أي عن «ذاته» في بادئ الأمر من علاقته بالأسرة، فقد يري نفسه محبوباً ومرغوباً فيه، أو منبوذاً، أو مُحترقاً. وبالتالي إمّا أن ينشأ راضياً عن نفسه، أو نافراً منها ساخطاً عليها، فتسود حياته النفسية التوترات والصراعات التي تتميز بمشاعر الضيق، والقلق، والشعور بالذنب، والإحساس بالنقص، والاكتئاب.

❖ تطوّر نمو الذات، ومفهوم الذات:

* طفل التسعة أشهر يفهم الإشارات، وهذه السن هي بداية الولادة السيكلوجية (النفسية) للطفل حينما يخرج من رحم اللاشعور بالذات، إلي الشعور بذاته، حيث يكتشفها ويدخل العالم الأكبر.

* حينما يتمُّ الطفل عاماً كاملاً يدخل في مرحلة الكشف والاستكشاف، فتتمو صورة الذات ويزداد التفاعل مع الأم، ثمَّ مع الآخرين، ويستعمل الكلمات، ويكون 10٪ منها ضامناً، وهنا تبدو فرديته الداخلية، ثمَّ تبدأ عملية الأخذ والعطاء، وتبدأ الذات النامية في التفريق بين العالمين الداخلي والخارجي.

* وفي سن عامين كاملين يزداد تمييز الطفل لذاته، ويكون مُتمركزاً حول ذاته، وتتمو «أنا»، و«أنت»، و«ملكي»، و«ملكك»، وتتكوَّن الذات الاجتماعية.

* وفي سن الثالثة يرسم الطفل صورة أشمل للعالم المحيط به، ويزداد شعوره بفرديته وشخصيته، ويزداد تمرُّكه حول ذاته، ويجتهد في بناء تلك الذات، ونسمع منه دائماً «أنا»، و«ملكي»، وبعد ذلك نسمع منه «نحن»، ثمَّ يدرك أنَّ له دوافع بعضها يتحقَّق، وبعضها الآخر لا يتحقَّق.

* وفي سن الرابعة يكوَّن الطفل علاقات عقلية واجتماعية وانفعالية مع الآخرين الذين يهتمونه، ونسمع منه أسئلة للاستكشاف والتوضيح، منها: لماذا؟، أين؟، متى؟.

* وفي سن الخامسة يتقبَّل الطفل فرديته، ويزداد وعيه بالذات ويقف اعتماده الكامل علي الوالدين ويزداد استقلاله ويتضح تفاعلُه الأكبر مع البيئة الخارجية.

* وفي سن المرحلة الابتدائية (من سن 6 إلى 11 عاماً) يلعب المُعلِّم دوراً مهماً في نمو الذات لدي الطفل، وتتمو الذات من تصوُّر الآخرين عن طريق عملية «الامتصاص الاجتماعي». ويزداد شعور الطفل بقيمته، ويسعى لتعزيز صورته في أعين الآخرين، وتتمو الذات المثالية خلال عملية التَّوَحُّد، وتبني أهداف الوالدين والمُعلِّمين والأبطال والنوابغ.. وهكذا نجد أنَّ في هذه المرحلة يتَّسع الإطار المرجعي، الذي يُحدِّد في ضوئه مفهوم الذات الموجب والتوافق النفسي، أو مفهوم الذات السالب وعدم الرضا وسوء التوافق، الذي يؤدي إلي عصبية الأطفال.

❁ الأسباب النفسية والجسمية لعصبية الأطفال:

يري بعض علماء النفس أنَّ أهم أسباب عصبية الأطفال وقلقهم النفسي ترجع إلي الشعور بالعجز والعداوة، وكذا الشعور بالعزلة، وكُلَّ هذه المشاعر السلبية ترجع إلي حرمان الأطفال من الدفء العاطفي، وعدم إشباع حاجاتهم إلي الشعور بالحب والحنان والانتماء والقبول، وإلي سيطرة الآباء في سطوة متجبرة. ولعلنا كثيراً ما نري أنَّ الآباء يخطئون في حق أبنائهم حينما يُفرِّقون بين طفلٍ وآخر فهذا «طيب» وهذا «خييب»، أو ابناً فلان «ذكي» وابناً فلان «غبي»، كذلك التفريق في المعاملة بين الولد والبنت.

وكذلك ترجع عصبية الأطفال إلي تناقض البيئة بما تنطوي عليه من الغش والخداع، فالآباء يعدون أطفالهم بأشياء كثيرة ثمَّ لا يفون بوعددهم.

والجدير بالذكر أنَّ العوامل والأمراض الجسمية قد تتسبَّب أيضاً في عدم استقرار الطفل وبالتالي عصبية، ومن هذه العوامل: اضطرابات الغُدِّد كزيادة إفراز «الغُدَّة الدرقيَّة

«وكذلك سوء الهضم، والإصابة باللوز، والديدان، ومرض الصرع، لذلك يلزم علينا التأكد أولاً من خلو الطفل من الأمراض العضوية التي تؤثر على الصحة العامة، فإن وجد الطفل سليماً من الناحية الجسمية تكون بالتالي أسباب العصبية نفسية يتحتم علاجها. وأحياناً تكون الأسباب مزدوجة، أي نفسية وجسمية.

✽ مظاهر العصبية تنتقل من الآباء إلى الأبناء:

لا شك أنّ الأب الذي يعاني من العصبية أو التوتر، فإنّه ينقل هذه المظاهر إلى أطفاله، لأنّ الطفل في حقيقة الأمر يلاحظ سلوك أبيه وينقل تصرفاته، وبذلك فإنّه يتعلّم أساليب جديدة للاستشارة الانفعالية.

والأمّ الثائرة الحانقة تُعلّم أطفالها العصبية والتهور والرّعونة، بدلاً من أن تُعلّمهم مُجابهة الحياة بتروٍ وهدوء دون انفعال وعصبية مُبالغ فيها.

والأمّ التسلطية تصبح مصدراً مُحبطاً للطفل فيقاومها كلّما تمكّن من ذلك، بعكس الأمّ المرنة الهادئة التي يُحبّها الطفل ويثق فيها، وبالتالي يخضع لمشيئتها وينفذ مطالبها بكلّ اقتناع وهدوء. ومعنى هذا أنّ كلّ الانفعالات والأساليب السلوكية والعادات والاتجاهات سواء أكانت مرضية أم صحيّة، سوية أم شاذة، تتمركز حول الآباء باعتبارهم مصادر السلطة. وحينما يكبر الطفل ينقل هذه الانفعالات والأساليب، ويبدأ في تعميمها، فالمُعلّمة تصبح البديل أو القرين لأمّه، وكذا يصبح المُعلّم البديل أو القرين لأبيه. لذلك لا غرو إذا كانت التربية الحديثة تؤكد على تربية الآباء قبل الأبناء، وتربية المُعلّمين قبل تربية التلاميذ الصغار.

✽ التذليل وفرط الحماية يؤثران سلباً في عصبية الأطفال:

إذا كانت القسوة تؤدي إلى عصبية الأطفال وتؤثرهم، فإنّ التذليل المُبالغ فيه والإفراط في الحماية يؤديان إلى عصبية الأطفال وانفعالاتهم المرضية وتؤثرهم الدائم، ذلك لأنّ التذليل يُنمي في شعور الطفل صفة الأنانية، ويجعله دائم التمرّكز حول ذاته، وكانّ ذاته هذه هي محور الكون ومركز اهتمام البيئة، فيتعلّم ضرورة إشباع طلباته دون تأجيل، ويثور ويتوتر إن لم تُجب رغباته لأنّه يُحس أنّ المجتمع كلّهُ يضطّعه، والدليل في نظره أنّه لم يحقّق رغباته، دون أن يدري بالقطع أنّنا لا نستطيع تلبية جميع رغباتنا في آنٍ واحد.

✽ العلاقة بين الضعف العقلي وعصبية الأطفال:

الضعف العقلي ومستوي الذكاء المنخفض يكون غالباً مصحوباً بالتوتر والعصبية وعدم الاستقرار، وقد تصل العصبية إلى حدّ التحطيم والتخريب. وتزداد عصبية ضعاف العقول كلّما حاولت البيئة (المنزل أو المدرسة) أن تمارس ضغوطاً عليهم، كان يُحسّونوا

أداءهم أو تحصيلهم، ويكون هذا أكبر من قدراتهم وطاقاتهم الذهنية والفكرية، ومما يزيد من عصبية هؤلاء الأطفال تأنيبهم كلما أخطأوا أو أخفقوا، أو عندما نقارنهم بغيرهم من الأسوياء مقارنةً تنطوي على بعض الظلم وليست في صالحهم، فيشعرون بالنقص والدونية والشقاء وخيبة الأمل فيزدادون توتراً وعصبيةً.

وعلى الآباء التعجيل بالعلاج الطبي اللازم حسب الحالة، مع إعادة تربية هؤلاء الأطفال بالأساليب التربوية الحديثة الخاصة، كذلك استثمار ذكائهم المحدود، ويلزم كذلك مساعدتهم على التوافق الاجتماعي المطلوب، وحمايتهم من استغلال الآخرين لهم، وإعداد وتوجيه الوالدين لكي يتحملاً عبء هذه المشكلة وقائياً وعلاجياً.

أمّا علي الجانب العامّ فلا بد من نشر المعرفة، ورفع وعي المواطنين بخصوص الضعف العقلي، وتوجيه وإرشاد الوالدين قبل الإنجاب، وذلك بالفحص الدوري للأمّ الحامل، ووقاية الأطفال أثناء الولادة، والتعرّف المبكر علي الاضطرابات الوراثية، التي يمكن أن تتسبب في إنجاب أطفالٍ ضعافٍ العقول.

❖ العلاقة بين الذكاء وعصبية الأطفال:

الطفل الذكي قد يُعاني - أحياناً - من العصبية والتوتر وعدم الاستقرار، ذلك لأنّ مستوي تفكيره يختلف كثيراً عن مستوي تفكير أقرانه، فيستوعب كلّ ما يُقال له أسرع وأعمق. ونحن نلاحظ أنّه كلما استرسل المُعلّم في الشرح بالإعادة والتكرار، شعر الطفل الذكي بالملل والضيق والتبرّم، لأنّه يستوعب بسرعة ملحوظة فنراه يستخف بالدراسة، وحتى في المنزل لا يبذل جهداً كبيراً في التحصيل والاستذكار، ولذلك ننبه أنّ مثل هؤلاء الأطفال إنما ينتابهم الغرور والثقة الزائدة في النفس. وهو الأمر الذي يؤدي بهم سوء حظهم إلي أن تخونهم قدراتهم أحياناً فيتأخرون دراسياً، أو قد يرسبون في الامتحانات، ومن ثمّ يُحبطون فتزداد عصبيتهم وتورثهم، وقد يُصابون بحالاتٍ مزمنةٍ من القلق والاكتئاب.

❖ كيف نقي أطفالنا من داء العصبية:

* الأبناء الذين يُعانون من العصبية عاشوا في منازل يسودها التوتر والقلق، لذلك يجب علي الآباء ضبط سلوكهم، وإشاعة جو من الهدوء والأمن والسعادة داخل المنزل.

* كثيرٌ من الآباء يتدخلون في كلّ كبيرةٍ وصغيرةٍ من شؤون أطفالهم، بحيث لا يشعرون بحرّيّتهم وذاتيّتهم فينشأون معتمدين علي الآخرين، لذلك يجب علي الآباء عدم التدخل في شؤون أطفالهم إلاّ بالقدر المعقول من التوجيه والإرشاد، وأن يتركوا لهم حرية التصرف في شؤونهم بالقدر المناسب من النصح والتبصير.

* من الآباء مَنْ يتحمس لفكرة عدم اختلاط الأبناء مع أقرانهم، إمّا خوفاً من الحسد أو من فرط الخوف عليهم، فيشرب هؤلاء الأطفال دون نمو كافٍ لشخصياتهم اجتماعياً، ولذلك علي الآباء إتاحة الفرص لأبنائهم لممارسة نشاطهم الاجتماعي السوي مع الآخرين.

* عدم التفريق في المعاملة بين الأبناء، وعلي الأخص إثارة الذكور علي الإناث، مع إشباع الحاجات النفسية للأبناء كشعورهم بالحُبِّ والإيثار والتقبُّل والأمن بدرجةٍ معقولةٍ ومقبولةٍ دون تدليل مُفرط أو مُبالغ فيه، حتى لا نخلق منهم أفراداً يميلون إلي السيطرة علي البيئة وفق هواهم.

* كثيرٌ من الآباء يعتمدون في تربيتهم لأطفالهم علي القسوة والتحقير والتعنيف، وهي أساليب من شأنها أن تؤثر سلباً في نمو شخصياتهم، ولا تؤدي إلا بالعصبية والعدوانية، أو بالانسحابية والانتواء، لذلك ننصح الآباء والمربين بالتباعد عن تلك الأساليب التي قد تُدمر الصحة النفسية للأطفال.

* تؤكد الدراسات أنّ عصبية الأطفال ليست وراثية بيولوجية عن طريق الدّم من الآباء إلي الأبناء، كما كان يُعتقد في السابق، وإنما هي سلوك مكتسب ومُتعلم، أو كنتيجةٍ لكبت وقهر الآباء لأبنائهم، ولذلك يلزم التحلي بروح الهدوء والاتزان والصبر في التعامل مع الأطفال.

* كثيرٌ من المدارس تهمل الهوايات والرياضات البدنية ومزاولة الأنشطة الفنية والموسيقية والكشفية، علي اعتبار أنّ هذه الأنشطة إنما هي من قبيل الأهداف الهامشية، أو علي أنّها أنشطة قد تتسبب في ضياع الوقت، الذي من المفروض أن يُخسر لمواجهة الكم الهائل من المعلومات والمعارف التي تحتويها المقررات الدراسية، لذلك يُطالب بضرورة أن تُغير المدرسة من دورها التقليدي الجاف، حتى تستطيع مواجهة تحديات المستقبل بخلق جيلٍ من المبدعين والرياضيين والعلماء والأدباء والفلاسفة والقادة ورجال الدين، حتى تتبوأ مصر وأمتها العربية المكانة المرجوة واللائقة.

